جُمهورْ، وما أبقى هنا، وتطوير الثورة العالمية!.

سلام إبراهيم

لا أتذكر بالضبط، اللحظة التي فيها، تعرفت عليه. ما جذبني تلك البسمة المضمرة المرسومة على قسماته المعجونة بالفحم عجناً تشاركت به شمس جنوب العراق والويسكي المغشوش المباع سراً في زمن ديمقراطية الطوائف. بسمة وشت لي بعالم - جمهور - الذي سأكتشفه يوما بعد يوم طوال فترة وجودي في المدينة. تبحرتُ في قسماته رائياً خلف أنفه المكسور في نقطة ما بين العينين وبعض الآثار الأخرى الموزعة على الوجه والعنق تاريخاً شخصياً عنيفاً. هكذا ظننت أول وهله، لكن سأكتشف لاحقا أنه من أكثر العراقيين ميلاً إلى التسامح والود. لم أره وسوف لا أراه يوما دون ربطة عنق حمراء معقودة على قميص أبيض يظهر من حافتي سترة قاط أسود نظيف. سيظل يرشقني بعينين حمراوين باسمتين طول السنتين اللاحقتين، قبل أن يهمس:

- أهلا أستاذ!.

بصوت خافت أطفأه الدخان. لم يكف عن نعتي بالأستاذ رغم رجائي المتكرر كي يكف عن ذلك، إذ سيتحول لقاءنا يوميا، لا بل نلتقي في الظهيرة مرةً وفي المساء أخرى. أتذكر الحديث الأول الذي تبادلناه وكان فاتحة العلاقة إذ سيخبرني أنه يعرف أخي الشهيد الشيوعي – كفاح - الذي يصغرني بثلاثة أعوام وكان يلتقي به في فترة اختفائه في بغداد 1978 - 1980 وقال أيضا بأنه صديق جارنا – حيدر منسي القانع – الذي هو الآخر كان عسكريا وأعتقل في نزلٍ بزقاق من أزقة - الحيدر خانه - وسط بغداد في تلك الأعوام، إذ كان يشاركه السكن شيوعي مختفي. – جمهور - في ذلك الوقت يخدم العسكرية ويلتقي بـ - حيدر - الذي سيضيع في أقبيتهم لِيُبَلغ أهله عن إعدامه بعد سنين ثلاث. هذا مفتاح علاقتنا الأول. طلب مني المرور على محله، فأدمنت ذلك في الأيام اللاحقة، إذ بِتُّ أمر عليه كلما خرجت في جولتي اليومية في أسواق الديوانية. المحل عبارة عن غرفة صغيرة جدا ثلاث أمتار × مترين ونصف، قديمة، سقفها خفيض، بابها حديدي خفيض أيضاً، مفتوح طوال الوقت على منضدة حديدية قديمة صغيرة موضوع عليها دفتر قديم إلى جواره قلم جاف وحاسبة يدوية صغيرة عدة – جمهور - لبيع أطنان الحديد الملقاة حزماً طويلة في الشارع جوار سياج مدرسة الزهراء الابتدائية المقابلة، وسياج دائرة - البيطرة - القديم المجاور. أول مرة أدخل فيها فسحته الضيقة جذبتني الصور والصحون المعلقة على الحائط خلف منضدة المكتب. صورة كبيرة لماركس بلحيته الشيباء بالأسود والأبيض، إلى جوارها الزعيم عبد الكريم قاسم منقوش بالألوان على صحن من الفرفوري بزيه العسكري ونياشينه وبسمته، وإلى جواره – جمهور – و – تشي جيفارا - منقوشين بالألوان على صحن أبيض كبير وكل منهما يرتدي قبعته. - تشي - بقبعته الشهيرة، و - جمهور - بواحدة بيضاء تضفي على فحم قسماته وبسمته المضمرة مزيدا من

الوضوح. وفي الركن علق صورة – فالح عبد حاچم – لاعب كرة القدم وهو أسطورة من أساطير الديوانية الرياضية، إذ لعب بالمنتخب العراقي أوائل سبعينيات القرن الماضي وأحرز ثلاثة أهداف على منتخب ألمانيا الشرقية في مباراة فاز بها العراق بنفس النتيجة، فملك قلوب العراقيين وصار في الديوانية رمزا وأسطورة. في الجدار المقابل للقنفة الوحيدة علقت صورة – فهد – مؤسس الحزب الشيوعي العراقي بوجهه الصارم المُذْكِر بالفترة الستالينية من حقبة حكم الأحزاب الشيوعية في أوربا الشرقية، وتحتها خُطَ **– الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق** -. - جمهور - يجلس خلف مكتبه يتفرج على التلفزيون الصغير المعلق جوار الباب. لم يتكلم عن نفسه، بل كان يبدي في كل لقاء تذمره من الأوضاع واختلاف أخلاق البشر وتفشي الكذب وعدم الأمانة وبيع الأخوة والصداقة مضاف لطامة الأحزاب الدينية التي تزيد في تجهيل الناس، كان يختم شكواه قائلاً:

- ما أبقه.. سأسافر!.

وحينما أسأله إلى أين؟، لا يبدي جوابا. به رغبة بالعيش حياة أخرى، في مكان أخر، لكنه لا يعرف أين وأنا أشكو له من جفاف حياة المنفى وشدة العزلة والوحدة، فيجيب:

- أنا وحيد لا زوجه، ولا أطفال، الشيء الوحيد الذي يربطني بالديوانية والعراق هي أمي!.

فأعلق ضاحكاً:

- والنضال والطبقة العاملة وفهد وجيفارا وماركس وعبد الكريم قاسم اللي يستقبلوك ويودعوك كل يوم!.

فيتبسم قائلا:

- أسولفلك هذي الطريفة!. شفت العمال اللي ينقلون الحديد، في يوم سألني واحد؛ عمي هذا السيد يقصد – ماركس – شو ما لابس عمامة، قلت له: عمي السيد توه طلع من الحمام!.

جمّعتُ قصصاً عن تاريخ – جمهور -، فَعلمتُ أن له ذهناً تجارياً وحساً في السوق أهله للقيام بالعديد من المشاريع، وأهمها كما يشاع مشروعه مع – ح. ظ – الذي أتفق معه على أن المال منه والأفكار من - جمهور - والوارد يقّسم مناصفةً لكن حينما تطور المشروع حاول أن يجعل – جمهوراً – عاملاً لديهِ بأجرٍ، مما جعل – جمهور – يذهب حافياً إلى ضريح الأمام – علي بن أبي طالب – في النجف كي يشكو – حاءًا -. وهذه الرواية حاولتُ من خلال علاقتي اليومية بـ - جمهور - معرفة مدى دقتها، لكن أمتنع عن التعلق عليها لا سلبا ولا إيجاباً، وحينما سألته مباشرة. أمعن في رفضه قائلاً:

- هذا ماضي، ما كو داعي إنْبْشَه!.

و - جمهور – ينصح المشتري بالانتظار حينما يعلم أن سعر الحديد سينخفض غداً وحينما سألته؛ لِمَ تفعل ذلك؟. أجابني: **بأن الناس مساكين تتقطع أنفاسهم ويهلكون حتى يبنون بيتا، وهو أني عندي شِيْ غير الناس.**

جميع من في السوق والمدينة يثق بكلمة – جمهور – من ناحية جودة البضاعة وسعرها. لكنه بمقدار ما يحب هؤلاء الناس بمقدار ما ينفر من تغير أحوالهم وأخلاقهم مادة شكواه طوال الوقت.
يوماً بعد يوم يتكشف لي نقاء هذا الإنسان.

صار مدار يومي في الديوانية يبدأ من دكانه صباحاً، ثم الدوران في سوق التجار، متنقلاً بين دكان حمود الخياط، قاسم الدعمي الخياط، كريم بائع الأحذية، محمد القصاب، حسين بائع الجبن، المكتبات، مقهى الراية، ومقاه صغيرة بين أزقته المسقوفة، مقهى البصراوي المكونة من قنفة واحدة أقضى عليها وقت ما بعد أذان الظهر في تصفح الصحف الصادرة في اليوم ليحط في المساء على ساحل – جمهور -. فبعد إغلاق مكتبه يأتيني إلى – الراية – لنمشي على ضفة الشط صعودا حتى كازينو – علي الكردي – منشغلين بأوجاع الناس.

أتصل بي مساء أحدى الأيام مخموراً وأخبرني بأنه أكتشف خطأ في تعاليم الثورة العالمية يحتاج إلى تصحيح. وبدأ بتسجيل ملاحظات ستضعها في المسار الصحيح، ويرجو مني مساعدته في صياغة تلك الأفكار باعتباري كاتباً. أفكاره سوف تجعل الإنسان يفكر بأخيه الإنسان. وعندما سألته عن ماهية هذه الأفكار؟!، أجابني بكلام

غامض وجمل غير مترابطة لم أفهم منها كلمة واحدة. ظلَّ يتصل مشغولاً بالأمرِ لأكثر من أسبوعين، لكن في الصباح لا يعود إلى الموضوع أبداً، فأيقنت أنه لا يتذكر شيئاً من حديثِ الليلِ.

أما قصة بحثنا مساءاً عن باعة خمر سريين ينتشرون في أرجاء المدينة بعد منعه، فهي من أمتع القصص؛ تبدأ مع حلول الظلام بتلفونات – جمهور – ومواعيد لا يأتي البائع فيها غالباً، فندور في أرجاء المدينة، نقرع أبواباً في عتمة أزقة نعودُ منها خائبين وشعور بمتعة خارقة ينتابني طوال ساعات البحث والانتظار التي تستمر أحياناً ساعات؛ متعة تفوق متعة الشرب نفسها. كان - جمهور - فيها يلعن الشرب مرددا:

- شِيْ سخيف، يلعب النفس، لكن أش لون واحد يتحمل الحياة بهذي الأوضاع دون أن يخّدر **رأسه!.**

بشق الأنفس نحصل على الشرب، لنحتار في المكان الذي نشرب فيه. شربنا مرتين في مكتبه الضيق على ضوء شمعه، فالتيار الكهربائي ينقطع عن السوق ليلاً. لم نرتح إذ شعرنا بالوحشة والكآبة وظلال ماركس وفهد وقاسم وتشي تخيم علينا فتوهمنا للحظات بدنو حلم المدينة الفاضلة ناسين قبح الواقع مما يولد مزيدا من الوهم والخيبة، فكففنا دون كلام. في يوم اقترحت عليه أن نشرب في الكازينو، فرشقني بنظرة دهشة قائلا:

- أش لون والناس، عيب مو أحنه معروفين!.

قلت:

- ولا يهمك سأدبر الأمر دون أن يشعر أحدٌ.

أخفيت قنينة في حقيبتي الجلدية. حملنا كرسيين عابرين ساحة الرواد المكتظة إلى الممر الترابي المظلم المشرف على مجرى النهر. وجعلنا ندير الويسكي في علبة السفن آب بعد أفراغ نصفها.، أما المزة فمن بائع باقلاء وحمص مسلوق داخل الكازينوا نفسها. كنا نغرق بالضحكِ فيعلقْ :

- والله أحلى شرب وسط الناس وهواء الشط المنعش، والله عندك أفكار!.

شربنا بهذه الطريقة أياماً. كان الجالس خلف منضدة الدَخّلْ يتفحصنا حينما ندفع ملاحظاً هيئتنا التي اختلفت كثيراً، كنا نخرج منتشيين صاخبين نتمازح معه بالعكس تماما من جدية هيأتنا عند الدخول.

في بحر النهار يأتني أحيانا – جمهور – مهموماً، في مشاريع صغيرة لمساعدة الأصدقاء المرضى والمحتاجين **لاعناً السلطات التي لا توفر خبزاً لمواطنيها في بلد يعوم على بحر من النفط، تعبيره الأثير في وصف العراق.** جمع في زيارتي الأخيرة خمسة ملايين دينار لعلاج – فاضل شعلان – المصاب بالسرطان. ليس الأصدقاء فحسب، بل حتى الفقراء ممن لا يعرفهم، ففي الأوقات التي أكون فيها في مكتبه تأتي نساء يبدو عليهن الفقر الشديد يقفن في الباب، فيترك المكتب ويعود بعد دقائق. أخبرني لاحقاً أنهن أرامل ليس لديهن مصدر عيش؛ وعندما قلت له :

- ستتعب، لا تستطع وحدك حلّ المشكلة، الأمر يتعلق بالنظام الاجتماعي!.

أجابني :

- ما أگدر.. أدري ما أحل مشكلة الفقر، لكن بالصدفة أتعرّف على وضع أرملة أو فقيرة فأني وسط السوق.. ما أگدر أساعد حسب إمكانيتي.

أصطحب في يوم الروائي العراقي – علي عبد العال – إلى مقر الحزب الشيوعي في المدينة وأقترح المشاركة في شراء براد ماء للمقر بعد أن قدموا لهم ماءًا ساخنا في عزّ الصيف، وفعلاً وصلهم البراد بعد ساعات.

أما قصصه عندما حلَّ بدمشق سنوات الحصار قبيل الاحتلال فقد كان يرويها ويعيد روايتها؛ عن صديقته المسيحية التي عشقته عشقاً مجنوناً واشترطت عليه أن يعيش معها وأمها ويبقى في الشام. لم يتمكن، فخسر فرصته الذهبية في الزواج، مختتما القصة بجملة قاطعة :

- يعني أش لون أعيش بالشام.. والعراق!. ما أگدر ما أگدر

أعلق ضاحكاً :

- قبل ساعة تگول ما أظل بالعراق!..

فيتبسم قائلا:

- والله حيرة.. حيرة.

وغيرها من القصص التي تتعلق بكفاحه وهو يبيع الأغراض وسط الشارع كي يكسب قوته ومشاركته الفعالة في ترويج جريدة – طريق الشعب -، وعن ضابط المخابرات السوري الذي أستوقفه ليلا في ساعة متأخرة والذي راق له حديث – جمهور – عن الدكتاتور والحرية فأخذه في سيارته ليدخل به ماخوراً ليلياً مكتظاً بالجميلات، عن أطايب الأكل والرقص وتفاصيل تشبه ما في ليالي الألف ليلة. وعن.. وعن.. حكايات يمتزج فيها الحلم باليقظة، الخيال في الواقع. شيء أصدقه وأنفعل به وأنا أتتبع حبكة هذه القصص والحكايات المتينة والمقنعة. لا أدري مدى صدقها لكنني لم أشكك بها أبداً، ففي تفاصيل الحياة اليومية لم يكذب – جمهور - أبداً في أي شأن، صغير أو كبير. كان يتصرف على سجيته وفي حركته خبرة وفهم عميق لمجتمع المدينة وإنسانها.

ولما كان – جمهور - يعاني من الوحدة، رغم تشعب علاقاته، طلبت منه أن يصطحب صديقاً أخر يعاني من الوحدة أيضاً لكن لأسباب مختلفة، فالأخير خسر المدينة وأهلها في السنوات الخمسة والعشرين التي كنتُ فيها في المنفى. والأسباب ليس مجالها في مقام – جمهور -. رتبت لقاءًا مشتركا مساء كل يوم في مقهى – الراية – وسط المدينة، لنتوجه مشياً حتى مقاهي - أم الخيل - على أمل أن يجد صاحبي المريض متنفساً ساعاتٍ من الليل في حالة سفري. في أول لقاء جمعنا في شقة صاحبي المتقاعد الذي جاوز الخامسة والستين والمجنون بالنساء. روى لنا كيف تمكن من الحصول على امرأة من السوق. صادها في تسكعه اليومي ونجح في

استدراجها إلى شقته وما فعله بها، واصفاً كيف كان يتمسك بكل جزء فيها يقبله ويهذي شعراً حتى أنها راحت تصرخ فرط اللذة، فقاطعته متسائلا:

- دبرتها؟!.

فأجاب:

- يعني أتحرك شويه مثل واحد توه گعد من النوم وما بيه حيل!.

فنب – جمهور – معلقاً بجملة جعلتنا نسقط أرضا من الضحك:

- حبيبي گول سُ...ح...ا....ق!.

والتعليق الذكي المباغت سمة من سمات شخصيته التي تبدو من الخارج جدية وحزينة.

ظل يلازم صديقي إلى أن أخبرني يوما بأن صاحبي صعب العشرة فهو يلازم الصمت والشرود مختتما كلامه:

- أني شارد من الكآبة يا سلام إذورْ أصاحب واحد عبارة عن كآبه.. لا.. لا.. أرجوك بعد ما أگدر أگعد وحدي أحسن ليّ!.

اتصلت البارحة بـه فأخبرني بأنه الآن يجلس في نادي إتحاد الأدباء ويشرب كأساً في صحتي. – جمهور - يهرب إلى بغداد في الشهر مرة والسبب كما أخبرني:

- حتى أتنفس يومين من تعب العمل وقبح البشر اللي تكذب مثل ما تتنفس!.

2011/3/26

الدنمرك